

أنطون تشيخوف

صاحبة الكلب الصغير

ترجمة

فؤاد أيوب   سهيل أيوب

حقوق الترجمة والطبع والنشر والاقتباس
محفوظة
لدار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر
دمشق - سورية

er

صاحبة الكلب الصغير

١

كان الحديث يجري عن شخصية جديدة ظهرت في متنزه رصيف المرفأ، وهي سيدة في عنفوان الشباب يرافقها كلب صغير ، فطفق ديمتري ديمتريفيتش جوروف ـ الذي أمّ يالتا منـــذ أسبوعين فقط وأخذ يعتاد عليها في هذه المدة الوجيزة ـ يُعنى هو الآخر بالقادمة الجديدة ويوليها بعض الاهتمام. وهكذا فقد لاحظ ذات يوم ، بينا هو جالس تحت العريشة في مقهى « فيرنيـه » ، امرأة في مقتبل العمر تعـــبر المتنزه ، صغيرة القامة ، شقراء الشعر ، تغطي رأسها بكمة لطيفة المنظر ، ويقتاف أثرهـا جرو أبيض اللون ، بوميراني الأصل فيما يدلّ مـظهره ..

وكذلك صادفها فيما بعد في الحديقة العامة وفي الساحة الكبيرة ، بل لقـد أصبح يلقاها مرات عديدات في اليوم الواحد ... كانت تخرج وحيدة إلى النزهة، تلبس الكمة ذاتهـا أبداً ، ويخبّ جروها الابيض وراءها في كل الأحايين ؛ لم يكن أحدٌ يعرفها ، فراح الناس يدعونها بكل بساطة : صاحبة الكلب الصغير .

قال جوروف في وليجة نفسه :

ـ إذا كانت هنا دون زوج أو أصدقاء ، فلن يكون من العبث التعرف إليها .

لم يكن قد تجاوز الأربعين بعد ، وإنْ كان أباً لصبيّةٍ في ربيعها الثاني عشر ، ولولدين يتابعان دروسهما في المعهد منذ زمنٍ طويل . لقد زوّجوه في زمن مبكر جداً ، عندما كان طالباً في السنة الثانية بعد ، حتى لتلوح زوجته أكبر منه بمرةٍ ونصف المرة في الوقت الراهن ... كانت امرأة شامخة القامة ، سوداوية الحاجبين، مستقيمة العود، قاسية الملامح، رزينة الطلعة، تدّعي انتسابها إلى فئة المفكرين ، فهي تكثر من القراءة ، وتؤيد الأسلوب الجديد في الكتابة ، ولا تدعو زوجها ديمتري كما يجدر ، بل دمتري، بكل بساطة . أما هو فكان يعتبرها، في صميم قلبه ، امرأة محدودة المعرفة ، ضعيفة التفكير ، عديمة الأناقة . وكان يخشاها ولا يحب البقاء في الدار، وقد غدا يخونها منذ زمن طويل، يخونها كثيراً في الحقيقة .. وذلك هو السبب، من دون أدنى ريب ، في أنه يطعن في النساء بقسوة دائماً ، فاذا تحدثوا عنهنّ في حضوره لم يدعهنّ أبداً إلا هكذا :

– يا للجنس السافل !

كان يصوّر له أن تجربته المحزنة تخوّل له الحق في دعوتهنّ كيف يشاء ، ولكنه لا يستطيع مع ذلك أن يعيش يومين متتاليين دون هذا «الجنس السافل». كان الملل يسطو عليه في مجتمع الرجال ، فيحسّ الضيق والضجر الشديدين ، ويصبح بارداً مكتئباً محزون الفؤاد . ولكنه لا يكاد يوجد بين النساء حتى يغشاه الشعور بالحرية المطلقة ، فيعرف كيف يسامرهنّ وكيف يسلك معهنّ ... لا بل إنه ليرتع في إحساس من الراحة التامة أيضاً حتى إن ظل بالصمت معتصماً في حضورهنّ ... ولقد كان في مظهره ، وأخلاقه ، ومجمل طبيعته ، شيءٌ عصيٌّ على الادراك، جذاب وساحر في الوقت ذاته ، يثير عطف النساء عليه ويجتذبهنّ إليه ... وكان جوروف يعرف ذلك حقّ المعرفة فيُجذب إليهن ، هو الآخر ، بقوة خفية تفوق إدراكه .

ولقد علمته تجربة طويلة متجددة - وفي الحقيقة إنها تجربة شديدة المرارة والايلام - أنّ كل اقتراب من المرأة يعطي الحياة في البدء تنوعاً لذيذاً ويلوح مغامرة رائعة ساحرة، سرعان مايتحوّل بالنسبة إلى رجل لائق، وبالأخص بالنسبة إلى أولئك الموسكوفيين الثقيلين الغامضين، إلى مشكلة كثيرة التعقيد تجعل الموقف في النهاية مرهق الوطأة، محفوفاً بالمتاعب، مفعماً بالاضطراب والقلق. ولكن ذكرى تجربته كانت تنزلق بصورة غريبة خارج نطاق وعيه، كلما التقى بامرأة جذابة، فتأخذه رغبة عنيفة في الحياة، ويبدو كل شيء في عينيه بسيطاً مسلياً حتى الدرجة القصوى.

وهذه السيدة ذات الكمة تقترب منه ذات يوم على مهل، فيما هو يتناول غداءه في الحديقة، وتأخذ مكانها إلى المائدة المجاورة له. كانت سيماؤها، ومشيتها، وأناقتها، وتسريحة شعرها، تحدثه جميعاً بأنها سيدة تنتسب إلى وسط رفيع، متزوجة، وأنها تؤم يالتا المرة الأولى وحيدة، وأن الضجر يغشاها في هذا المكان ويثقل عليها... كان الناس يثرثرون بعدد كبير من الأكاذيب عن تفسخ أخلاق أهالي هذه البلاد، فيبثّون في فؤاده كراهية عظيمة لمثل هذه القصص التي يعرف جيداً أنها من تلفيق قوم كانوا يذوقون الخطيئة بكل طيبة خاطر لو سنحت لهم الفرصة كي يفعلوا ذلك. وحين جلست تلك السيدة إلى المائدة المجاورة له، عاودته ذكرى انتصاراته السابقة السهلة، فانخرط يحلم بالنزهات في الجبل، وقد ملكته فكرة مغرية تمنّيه بعقد صلة سريعة ومؤقتة مع مجهولة ليس من يدري اسمها الصغير، كما ليس من يعرف لقب عائلتها أيضاً.

وهكذا نادى الجرو الصغير بلطف، حتى إذا اقترب هذا منه هدّده باصبعه، فزمجر الجرو في وجهه، لكن جوروف هدّده من جديد...

ورمته السيدة بنظرة خاطفة، وسرعان ماخفضت عينيها...

قالت منضرجة وجنتاها :

— إنه لا يعضّ .

— أيمكنني تقديم عظمة له .

وعندما ردّت عليه باشارة تأكيد من رأسها ، سألها في لطف كثير :

- أنتِ في يالتا منذ زمنٍ بعيد ؟

فأجابت :

— منذ خمسة أيام .

فقال :

— أما أنا ، فاني أقترب من نهاية أسبوعي الثاني .

وتبع ذلك صمت قصير ...

قالت ، دون أن تتطلع إليه :

— إن الزمن ينقضي بسرعة عظيمة ، ومع ذلك فالمرء يملّ كثيراً هنا .

— لكأن الناس متفقون على القول إنهم يملون هنا ! إنهم يحيون بكل سلام في مكان ما في بيليف أو جيزدرا ، ولا يملون ؛ إنما لا يكادون يؤمون هذا المكان حتى يعلنوا على رؤوس الاشهاد : «أواه ! ما أشد ضجرنا ! أفّ ! يا لهذا الغبار اللعين! ». وليظنّ المرء عندئذ أنهم آتون من غرناطة على الأقل .

وضحك كلاهما ، ثم شرعا يتناولان الطعام من جديد في صمتٍ وسكون تامين ، وكأنما لا يعرفان بعضهما بعضاً . ولكنهما سارا معاً بضع خطوات بعد الغداء ، وتجاذبا أطراف حديث خفيف ساخر ، حديث شخصين طليقين راضيين لا يباليان المكان الذي يذهبان اليه ، أو الموضوع الذي يثرثران عنه . كانا يتنزهان ويتكلمان عن استنارة البحر الغريبة ، فقد كانت المياه ليلكية اللون ، عذبة دافئة ، يمتدّ عليها شعاع طويل من ضياء القمر . وعرضا الى الهواء الخانق بعد يوم خدِرٍ ،

CamScanner

كما أخبرها جوروف أنه آت من موسكو ؛ وأنه اختصاصي في علم اللغة ، لكنه يُشغل في الوقت الراهن منصباً هاماً في أحد المصارف ؛ وأنه قد فكر فيما مضى من الزمان أن يصبح مغنياً في اوبرا ، ولكنه عاد فأهمل تلك الفكرة وطلقها ؛ وأنه يملك بيتين في موسكو ... أما هي فقد أفادته أنها نشأت في بطرسبرج ، ولكنها تزوجت في س... حيث تقيم منذ عامين ، وأنها ستبقى شهراً آخر في يالتا حيث سيلحق بها زوجها بكل تأكيد لحاجته ،هو الآخر، الى شيء من الراحة . ولم تستطع قط أن توضح على وجه الدقة مركز زوجها، أهو عضو في حكومة المقاطعة ، أم موظف في مجلس الزمستفو ليس غير،الامر الذي حملها على الضحك كثيراً من جهلها : وكذلك علم جوروف أنها تدعى آنّا سيرجييفنا .

وعندما أمسى في غرفته في الفندق بعد ذلك، اتجهت أفكاره اليها طويلاً ، وحدّث نفسه أن سوف يلقاها في الغداة دون ريب، وأن الامور ستجري على هذا النحو من كل بدّ ... وعندما سعى الى فراشه تذكر أنها لم تترك المعهد ، حيث كانت تتابع دروسها مثل ابنته ، إلا منذ وقت قريب ؛ كما تذكر خجلها وارتباكها عندما تضحك أو تتحدث الى رجل غريب عنها . مما لا شبهة فيه أنها تجد نفسها للمرة الاولى وحيدة هكذا في بيئة يقترب الناس منها فيها،ويطيلون النظر اليها، ويخاطبونها وقد بيّتوا في نفوسهم نية لا يمكن إلا ان تخمنها .

وفكر أيضاً في عنقها الرقيق الهشّ ، وفي عينيها الرماديتين الجميلتين .

قال في ثنايا نفسه قبل أن ينام :

- إن فيها لشيئاً يثير الشفقة على أية حال ...

٢

وانقضى اسبوع على لقائهما الأول . وكان الطقس شديد الحر في اليوم الثامن – وكان عيد – حتى ليكاد المرء أن يختنق ضمن الغرف ، بينا الغبار يدوّم في الخارج في إعصار عنيف ، والريح تهب عاصفة عاتية حتى لتنتزع القبعات عن الرؤوس وتلعب بهـــا في الفضاء الفسيح . وكان العطش يقتل المصطافين طوال النهار ، فلا يبرح جوروف يغدو ويروح باستمرار إلى قاعة الفندق العامة ، يقدم إلى آنّا سيرجييفنا كؤوس الشراب أو البوظة المجمدة ... إن المرء لا يدري حقاً ما عساه يفعل في هذه الحال ! وعندما هبط المساء واستكانت الريح أخيراً ، انطلقا إلى المرفأ كي يتفرجا على باخرة ترسو . كان هنالك عـــدد غفـير من الناس على الرصيف، وقد حمل بعضهم باقات من الزهور كي يستقبلوا القادمين من أصدقائهم. وكانت ميزتان خاصتان بيالتا تتضحان بصورة بارزة في هـذا الجمهور المزدحم على الشاطىء : كميـــة السيدات المتقدمات في السن اللائي يرتدين ملابس الصبايا من جهة ، وكثرة الجنرالات من جهة أخرى .

كان البحر شديد الهياج ، قد عاق قدوم المركب الذي لم يصل إلا عنـــد تضيُّف الشمس، وقضى وقتاً طويلاً حتى طفّ من الرصيف أخـــيرا . وكانت

آ نّا سيرجيبفنا قد أثارت بصرها إلى الباخرة والركاب من خـــلال منظارها ، وكأنها تبحث عن معارف لها بينهم ، فلما التفتت إلى جوروف راحت عيناها تلمعان ببريق ألاّق غير مألوف . وكانت تتحدث كثيراً ، وتلقي سؤالاتها بصورة مباغتة ، ثم تلوح وقد نسيت مباشرة السؤال الذي طرحته . وأخـــيراً فقدت منظارها في زحمة الجمهور ...

وأخذ المتطفلون المتأنقون يتبعثرون في النهاية ، واكتنزت العتمـــة حتى لم يعد في الامـــكان تمييز الوجوه ، بينا هجعت الريح تماماً ، وجوروف وآ نّا سيرجيبفنا لا يبرحان الرصيف بالرغم من ذلك ، وكأنهما ينتظران بَعدُ نزول إنسان ما من المركب . ولكن آ نا ســـيرجيبفنا الآن قـد أقلعت عن الـكلام تماماً ، وراحت تشم أزاهير باقتها دون أن تلتفت إلى جوروف مطلقاً .

قال :

ــ يبدو أن الطقس قـد أمسى أفضل عند المساء . إلى أين نذهب ، ياترى ؟ أفليست بك رغبة في نزهة في العربة ؟

فلم تحر جواباً ...

وعندئذ حملق فيها بثبات برهة من الزمن ، ومن ثم أخذها ، على حين غرة ، بين ذراعيه ، وقبّلها على فمها ، فعبق خيشوماه برائحة الأزاهير الرطبة . وسرعان ما ألقى بأنظاره فيما حوله ، كي يتأكد من أن أحداً لم يرهما .

قال بصوت مخفوض :

ــ فلنذهب الى بيتك .

وأسرعا في الذهاب ...

كان الجـــو خانقاً في غرفتها ، يفيض برائحة العطر الذي ابتاعته من المخزن

الياباني . وراح جوروف يفكر ، وهو يرنو إليها : « أية لقى غريبة تتحقق في هذه الحياة ! . »

إنه يحفظ من الماضي ذكرى النساء اللامباليات اللعوبات اللواتي يحفظن له بدورهن الامتنان والعرفان بالجميل للسعادة التي حملها لهن ، مهما تك هذه السعادة قصيرة مقتضبة ، وكذلك ذكرى نساء أخريات — زوجته مثلاً — يحببن دون أي إخلاص ، ويكثرن من الأحاديث العديمة المغزى ، ويتصرفن بطرق غريبة ، ويخلقن المشاكل والمتاعب دائماً ، فكأن ما يواجهنه ليس قضية حب أو هوى ليس غير ، بل ما يفوق ذلك أهمية حتى درجة بعيدة . وانه ليحفظ أيضاً ذكرى سيدتين أو ثلاث سيدات،فائقات الجمال ، كثيرات البرود،يتألق في محياهن أحياناً سيماء القسوة والوحشية ، ودلائل الرغبة العنيدة في الاخذ من الحياة ، في الانتزاع منها أكثر مما تستطيع أن تعطي ، هؤلاء النسوة المتقلبات الاطوار ، المتسلطات ، المترددات وعديمات الحصافة ، لم يكن في أوار الفتوة أبداً ، بحيث كان جمالهن يثير حقد جوروف إذا ما بردت عاطفته تجاههن مرة، وكانت دانتلة ثيابهن تبعث في ذهنه فكرة أهداف الأفعى الخبيثة السامة .

أما ههنا ، فهو لم يك يرى إلا حياء الصبا المجرد عن التجربة وارتباكه: إن هنا ذلك التعبير من الاكراه ، ذلك الشعور من الاضطراب والقلق الشديدين، فكأن بعض الناس قدطرق الباب على غير انتظار.لقدنظرت آنَّا سيرجييفنا«صاحبة الكلب الصغير » إلى ما حدث بعين الجدّ والخطورة ، فكأنه سقوط في الخطيئة يتضمن معنى الاهانة ، والذلّ ، والانحطاط ؛ فاذا ملامحها تذبل ، وشعرها يتدلى في اكتئاب حول محياها ، وهي تجلس في مكانها دون حراك ، مستغرقة في التفكير، في وضع الخاطئات الحزين كما تمثلهن اللوحات القديمة .

قالت :

— ليس هذا حسناً ، ولسوف تكون الآن أول من يكفّ عن احترامي .

كانت على المائدة بطيخة اقتطع جوروف شريحة منها ، وراح يتذوقها في بطء وتكاسل . وبقيا على هذه الحال صامتين طوال نصف ساعة على أقل تعديل .

كانت آنّا سيرجييفنا مثيرة للمشاعر حقاً ، تعبق بشيء من طهر سيدة محترمة ساذجة ، قليلة التجربة . وكانت الشمعة الوحيدة التي تحترق على المائدة تكاد ألا تضيء محياها ، وإن كان المرء يستطيع أن يميز مابدا عليه من اضطراب .

قال جوروف :

— لمَ تريدين أن أكفّ عن احترامك ؟ إنك لاتعرفين ماتقولين .

قالت، ممتلئة عيناها بالدموع :

— فليسامحني الله ! إن ذلك لرهيب .

— لكأنك تريدين أن تبرري نفسك .

فأجابت :

— بأي شيء تريدني أن أبرر نفسي ؟ إني امرأة شريرة سافلة ، أحتقر نفسي ، ولا أجرب أن أبررها . إني لم أخن زوجي الآن ، بل خنت شخصي بالذات . وأنا لم أخن نفسي اليوم فحسب ، بل إني أفعل ذلك منذ زمن طويل جداً . قد يكون زوجي رجلاً شريفاً ، طيب القلب ، ولكنه أجير ! إني لا أعرف ما الذي يصنعه هناك ، وما هي وظيفته ، بل أعرف فقط أنه أجير لا أكثر ولا أقل . كان لي عشرون سنة عندما تزوجت منه ، وكنت مفعمة فضولاً وحباً للتطلع ، متعطشة إلى شيء أفضل دوماً . كنت أقول في نفسي : «إن ثمة حياة أخرى بكل تأكيد» وكانت بي رغبة عاتيـــة في الحياة ، وأنا أريد أن أعيش ، وأعيش ، وأعيش ... وكنت أتحرق فضولاً ... أنت تعجز عن فهم ذلك ، ولكني أقسم أمام الله أني

كنت عاجزة عن كبح جماح نفسي : لقد حـــدث في باطني شيء ما ، يجعلني غير قادرة على امتلاك زمام عواطفي ، فقلت لزوجي إني مريضة ، وجئت إلى هنـا ... ورحت أضرب على غير هدىً ، وكأنني في حلم ، أو كأنني مصابة بالجنون ... وهذي أنا قد أصبحت واحدة من أولئك النساء المتساهلات ، اللائي يحقّ لكل إنسان أن يحتقرهن .

كان جوروف يسمع إليها في ضجر كثير ، تثير نقمته لهجة ذلك الاعتراف الساذجة والوقحة في وقت واحد . ولولا العبرات التي في عينيها ، لحسب أنها تمزح أو تمثل .

قال لها بصوت خفيض :

— إني لا أفهم . ماذا تريدين ؟

فأخفت وجهها في صدره، والتصقت به في شدةوعزم .

قالت :

— صدقني ، أتوسل إليك أن تصدقني ... إني أحب الحياة الشريفةالطاهرة، والخطيئة تبعث النفور في قلبي ، وأنا لا أدري ما أفعل . إن الناس البسطاء يقولون إن ذلك من صنع الشرير .. بلى ، إني لأريد أن أقول عن نفسي إني فريسة الشرير .

فهمس جوروف :

— هيا ، هيا !...

كان يتطلع في عينيها الجامدتين المذعورتين ، ويقبلها ، ويحدثها في لطف وحنان ، حتى هدأت شيئاً فشيئاً ، وعاودها مرحها ، فأخذا يضحكان من جديد...

وعندما خرجا إلى الرصيف فيما بعد ، وجداه مقفراً من كل نفس حيـة ... كانت المدينة ، بأشجار الصنوبر المنبثة في أرجائها ، تبدو ميتـــة مجردة عن كل

حياة، لكن البحر كان يضطرب دائماً ، ولا ينِي يهاجم الشاطىء بأمواجه الطموح. وكان قارب صغير يترنح فوق الأمواج بمصباحه الذي يشع النور في تكاسل وفتور .

ووجدا عربة قادتهما إلى أوريانْدا ...

قال جوروف :

— لقد لمحت اسمك تواً في قاعة الفندق: فون ديدوريتز .هل زوجك ألماني الأصل؟

— كلا ، بل أظن أن جدّه كان ألمانياً ، أما هو فأورثوذكسي المذهب .

وعندما وصلا إلى أوريانْدا ، اقتعدا دكة خشبية قريباً من الكنيسة ، وراحا يتأملان البحر في صمت ... كانت يالتا تكاد ألا تُرى من خلال ضباب الصباح ، بينما تجمدت سحب بيض على قمم الجبال لاتتحتح من مكانها قيد أنملة . ولم تكن الأوراق تتحرك على الأشجار ، فيما بعض الجنادب تصرخ ، وضوضاء البحر المنتظمة الرتيبة تتصاعد إليهما ، وكأنها تتحدث عن سلام ذلك الحلم الأبدي الذي ينتظرنا جميعاً . لقد كانت هذه الضوضاء المنتظمة حتى عندما لم يكن لا يالتا ولا أوريانْدا على هذا الشاطىء ؛ وإنها لتستمرُّ ، هذه الضوضاء ، ولسوف تستمرُّ ، عندما نكفّ نحن عن الوجود ، لامبالية صمّاء مثلها الآن ... ولعلّ في هذا الاستمرار ، في هذه اللامبالاة المطلقة بحياة كلٍّ منا وموته ، ضمانة خلاصنا الأبدي ، ضمانة لحركة الحياة غير المنقطعة على الأرض ، والكمال غير منقطع أيضاً... وكان جوروف يفكر ، وهو يجلس إلى جانب امرأة حبيبة تلوح له حلوة في ضياء الفجر ، مرتاحاً ومسحوراً بروعة هذه الأقصوصة الخرافية التي يلعب الجن الدور الرئيسي فيها ، وبهذا البحر ، وهذه الجبال ، وهذه السحب ، وهذه السماء العريضة الواسعة .. كان جوروف يفكر أن كل شيء في هذا العالم جميل حقاً إذا أمعنّا النظر فيه ، كل شيء ماعدا أفكارنا وأفعالنا عندما ننسى الأهداف

السامية للوجود ، وننسى عزّتنا وكرامتنا الانسانيتين .

واقترب رجل منهما ـ إنه خفير بكل تأكيد ـ وصوّب نظره إليهما ثم ابتعد ، فاذا هذا الأمر البسيط يبدو لهما ، هو الآخر ، عجيباً جميلاً . وشاهدا مركباً قادماً من تيودوسيا ، ينيره الفجر ، قد أطفأ أنواره جميعاً ...

قالت آنا سيرجييفنا ، بعد صمت قصير :

ـ إنّ في العشب ندىً .

ـ نعم ، ولقد حان وقت الاياب ...

وقفلا راجعين في اتجاه المدينة ...

أضحيا يلتقيان بعد ذلك في المتنزه يومياً ، يتناولان طعام الغداء والعشاء معاً ، ويتجولان حيث تقودهما أقدامهما ، ويعجبان بالبحر العظيم ، وهي تشكو أثناء ذلك من الأرق وسوء الرقاد ، ومن خفقان قلبها المقلق ، وتطرح عليه دائماً الأسئلة نفسها ، تعذبها الغيرة تارة ، والخشية من عدم إضماره الاحترام لها تارة أخرى ، أما هو فكثيراً مايجذبها إليه على غير انتظار ، وهما في الساحة الرئيسية أو في الحديقة العامة ، عندما يكون المكان مقفراً من الناس ، ويقبّلها في شغف وهوىً فائقين . إنّ هذه البطالة المطلقة ، وهذه القبلات في وضح النهار ، التي يصاحبها الخوف من رؤية الناس لهما ، وهذه الحرارة ، وهذا العبيق المتصاعد من البحر ، وهذه المشاهدة الدائبة لقوم عاطلين ، أنيقي الثياب ، حسني التغذية ، إنّ سائر هذه الأمور قد بدّلته كلياً ؛ نيروح يخبر آنّا سيرجييفنا كم يراها جميلة مغرية ، ولا يتركها لحظة واحدة ، بينا هي تستغرق كثيراً في التفكير ، وتسأله دائماً أن يعترف لها إن كان قد فقد كل احترام نحوها واعتبار لها ، وإن كان لايحبها أبداً ، وإن كان لايجد فيها إلا امرأة سهلة المنال ليس غير . وكانا يغدوان في نزهة إلى خارج المدينة في ليل كل يوم تقريباً ، فيؤمان أورياندا أو

يقصدان الشلالات ؛ وكانت النزهة تنجح دائماً ، وتترك فيهما أبداً انطباعات رائعة الجمال فائقة النضارة ...

كانا ينتظران قدوم الزوج ، ولكن هذا أرسل كتاباً يعلن فيه أنه يشكو من عينيه ، وأنه يتوسل إلى امرأته أن تعود إليه في أسرع وقت ممكن . وهكذا فقد راحت آنّا سيرجييفنا تهيىء عدة السفر في عجلةٍ محمومة .

قالت لجوروف :

ـ من الأفضل أن أذهب ... إنه القضاء .

ورحلت في العربة برفقته . سافرا طوال النهار ، حتى إذا استقرت بعد ذلك في جناحها في القطار السريع ، ودقّ الجرس للمرة الثانية ، توجهت إليه بقولها :

ـ دعني أنظر إليك أيضاً ... مرة أخرى بعد ... هكذا .

لم تك تبكي ، ولكنها كانت حزينة مكتئبة ، حتى ليقال إنها مريضة متوعكة الصحة . وكانت اختلاجات كثيرة تتعاقب على محياها .

كانت تقول :

ـ لسوف أفكر فيك ... لسوف أتذكرك ... فليحفظك الله . لا تظنّ بي السوء ، فنحن ننفصل إلى الأبد ، وهذا حسن ... كان يفضل لكلينا لو لم نلتقِ ألبتة هنا ، كان الله معنا !

وابتعد القطار سريعاً ، واختفت أنواره في برهة وجيزة ، ولم تنقض دقيقة واحدة حتى تلاشت ضوضاؤه أيضا فكأن كلّ الأشياء قد اتفقت كي تضع حداً في أسرع وقت ممكن لهذا الحلم الجميل أو لهذا الجنون بالأحرى . وراح جوروف ، وقد بقي وحيداً على الرصيف يحدّق النظر في المدى المظلم ، يسمع أصوات الصراصير وهمهمة الأسلاك البرقية بشعور المرء حين يخرج من حلم عميق كان يستغرق في لجته بكليّته .. وكان يفكر أن مغامرة أخرى قد حدثت في حياته ،

وأنها قد انتهت ، ولن يبقى منها سوى ذكراها فقط ... وكان متأثراً ، حزيناً ، يحس شعوراً طفيفاً من الندم والتأنيب : إن هذه المرأة الشابة التي لن يراها قط بعد الآن لم تسعد معه؛ لقد كان عطوفاً وحنوناً تجاهها، ولكن ظلاً من السخرية الخفيفة كان يخيم دائماً ، على أية حال ، على موقفه منها ، ولهجته في مخاطبتها، وملاطفاته لها ، ظلاً من التفوق الفظ نوعاً ما ، الذي يستشعره رجل راض تجاه المرأة التي يكبرها بمرتين تقريباً. ولقد وجدته طوال هذا الزمن طيب القلب ، نبيل الشعور ، غير عادي على الاطلاق ، فمن الواضح أنه كان يبدو لها غير ما هو في الحقيقة ، وأنه كان يخدعها بالنتيجة ، من دون إرادة منه ...

كانت رائحة من الخريف تغمر المحطة منذ الآن ، والأمسية باردة بعض البرودة.

وعندما ترك جوروف الرصيف ، كان يقول في ثنايا نفسه :

ـ ولقد حان الوقت لي ، أنا الآخر ، كي أعود الى الشمال .. لقد حان الوقت !



٣

كانت البيوت قد هيئت في موسكو من أجل الشتاء ، فالنار قد شرعت تتأجج في المدافىء ، بينما النيانيا (١) تشعل النور صباحاً ، فيما الأطفال يتناولون الشاي استعداداً للذهاب إلى المدرسة ، لأن الظلام لما ينجلِ تماماً بعد . ولقد بدأت المياه تتجلد ، ومن ثم أثلجت السماء للمرة الأولى ... ما أحلى أن يرى الانسان ، حين يتنزه في الزحافة للمرة الأولى ، إلى هذه الأرض البيضاء ، وتلك السقوف البيض أيضاً ؟ ما أعذب وأطيب أن يتنفس ، وأن ينبش في ذكرياته سنوات شبابه الخالية ! إنّ أشجار التنوب والسندر العتيقة ، المبيّضة بالجليد ، لتبدو محببة لطيفة ، أقرب إلى القلب من أشجار السرو والنخيل ، فاذا ما كان المرء قريباً منها ، لم تراوده الرغبة أبداً في التفكير في الجبال أو البحر ، أو أي شيء آخر .

كان جوروف من أهالي موسكو ، فعاد اليها ذات صباح قد تجلدت الارض فيه ، وعندما لبس قفازيه وارتدى معطفه المصنوع من الفرو ، ثم خرج في نزهة قصيرة على البتروفكا ، وعندما تردد في سمعه رنين أجراس الكنائس مساء السبت،

---

(١) يعني المربية.

في سفراته الحديثة والاماكن التي زارها ، بحيث تلاشى كل تأثير كان لها عليه. وأخذ يستغرق من جديد شيئاً فشيئاً في حياة المدينة الكبيرة ، فهو يقرأ في نهم ثلاث صحف في اليوم ، بينا يعلن على رؤوس الاشهاد أنه لا يقرأ ، مبدئياً ، صحف موسكو على الاطلاق . واجتذبته المطاعم ، والنوادي ، والحفلات ، ودعوات الطعام ، وأصبح يفخر باستقبال محامين وفنانين مشاهير في داره ، ويزهو إذ يلعب الورق مع أستاذ ذائع الصيت في نادي اتحاد الاطباء ، كما اضحى قادراً ، مرة أخرى ، على تناول كميات كبيرة من طعامه اللذيذ المفضل ...

كان يخيل إليه أن صورة آنَّا سيرجييفنا لن تلبث أن تزول من مخيلته في أقل من شهر واحد ، وأن ابتسامتها المؤثرة وحدها سوف تتراءى له من حين لآخر في الحلم ، مثلما تتراءى ابتسامات النساء الأخريات اللائي عرفهن . ولكن شهراً قد انقضى ، بل أكثر من شهر أيضاً ، وتقدّم الشتاء كثيراً ، وما برح كل شيء واضحاً في ذاكرته بالرغم من ذلك ، فكأنه لم يفترق عن آنّا سيرجييفنا إلا في العشية فقط. لا بل إن الذكريات كانت تشتد تأرثاً يوماً بعد يوم باستمرار . كان يكفيه أن يسمع في سكون المساء ، وهو جالس في غرفة عمله ، أصوات الأطفال البعيدة وهم يحفظون دروسهم ، أو يصغي إلى كلمات أغنية تتردد في مكان ما ، أو أنغام لحن جميل يُعزف في المطعم ، او أنات الريح عندما تندفع في المدخنة ، حتى يستيقظ كل شيء في ذهنه على حين غرة .. مواقف المرفأ ، والفجر المضب المرتفع فوق الجبال ، والباخرة القادمة من تيودوسا ، وقبلاتهما اللاهبة العنيفة.. كان يتجول طويلاً في طول غرفته وعرضها، يستعيد الذكريات ويبتسم ، فما أسرع ما تتحول هذه الذكريات في فكره الى الاحلام ويختلط الماضي في مخيلته بالمستقبل الغامض. لم يك يحلم بآنا سيرجييفنا ، بل كانت هذه الأخيرة تلاحقه بالأحرى في كل مكان أشبه ما تكون بخيال يقظ . فيشاهدها عندما يغمض عينيه حيةً أمامه .

يشاهدها أجمل وأنضر وأعذب مما كانت عليه ؛ في حين يراوده الشعور بأنه ، هو الآخر ، أفضل حقاً مما كان عليه أثناء إقامته في يالتا .. وعندما يهبط خيال المساء ، كانت تتطلع إليه ، مختبئة في المكتبة ، أو في المدفأة ، أو متخفية في إحدى زوايا الغرفة ،فيستطيع أن يسمع ، إذا ما أرهف أذنيه ، تنفسها الخفيف ، وحفيف ثوبها اللطيف العذب ، فاذا ما هبط الى الشارع بعد ذلك راح يلاحق النساء بأنظاره الجائعة ، يبحث بينهن عن امرأة قد تشبهها من بعيد أو قريب ...

وكان يحس رغبة عاتية في الاعتراف بذكرياته لشخص ما .. ولكن الحديث عن غرامياته في الدار لم يخطر له على بال قط ، وفي خارج الدار لم يكن من يستطيع ان يتحدث إليه ويعترف له ... كان ذلك مستحيلاً ، إن بالنسبة الى جيرانه ، أو بالنسبة الى زملائه في المصرف.. وعما عساه أن يتحدث على أية حال؟ هل أحبها يومذاك على الأقل ؟ هل كان في علاقاته مع آنا سيرجييفا شيء جميل، شعري ، مثقف ، أو باعث على الاهتمام بكل بساطة ؟ كان عليه أن يكتفي بالحديث في غموض عن الحب وعن النساء ، دون أن يقدر إنسان على تخمين مغزى حديثه، اللهم إلا زوجته التي كانت تحرك حاجبيها السوداوين وتقول :

ــ إن دور المغرور لا يلائمك مطلقاً ، ياديمتري .

وفي ذات يوم ، بينما هو يغادر نادي الاطباء برفقة زميل له من الموظفين ، لم يستطع أن يتمالك نفسه فقال :

ــ لو كنت تدري أية امرأة ساحرة تعرفت اليها في يالتا !

واتخذ الموظف مكانه في زحافته ، وانطلق بها دون أن يحري جواباً ... ولكنه تذكر شيئاً على حين فجأة ، فالتفت الى جوروف وناداه قائلاً :

ــ ديمتري ديمتريفيتش !

— نعم .

— لقد كنت على حق تواً ، فالسماك متن نوعاً ما .

ولكن هذه الكلمات العادية أثارت بغتة نقمة جوروف وبعث السخط في نفسه ، إذ بدت له بسبب ما سافلة ، دنيئة ، وقحة .. يا لهؤلاء الناس،ويا لأخلاقهم البربرية !.. يا لهذا الليل السخيف ، ويا للنهار المضجر الرتيب ! كان التهافت على القمار ، والجشع ، والعربدة ، ونفس الأحاديث دوماً في ذات المواضيع، والمشاغل العديمة الاهمية ،والاحاديث العديمة الجدوى ، تستغرق أجل وقته وتستهلك معظم قواه ، فلا يتبقى له في النهاية سوى حياة محطمة غير مجنحة ، حياة سخيفة لا يمكن تجنبها أو الهرب منها قط ، فكأن المرء حبيس في مستشفى للمجانين ، أو في سجن للأشغال الشاقة !

ولم يستطع جوروف ، لشدة نقمته ، أن ينام تلك الليلة ، كما أصيب بالصداع طوال النهار التالي ... وكذلك أصابه الأرق في الليالي اللاحقة ، فهو يقبع تارة في سريره يفكر ويتأمل ، أو يجوس أرض غرفته في غـــدوة ورواح تارة أخرى . ولم يك به رغبة في الذهاب الى أي مكان ، أو في مجاذبة أي انسان أطراف الحديث .

وفي عطلة العيد ، في كانون الاول ، قرر الرحيل ، قائلاً لزوجته إنه غاد الى بطرسبرج كي يراجع السلطات في موضوع شاب من معارفه ، ومضى الى س ... لماذا ؟ لم يك يدري ، هو نفسه ، الباعث الحقيقي على ذلك . كان يريد أن يرى من جديد آنا سيرجييفنا ، وأن يتحدث اليها ، وأن ينال موعداً منهـا إن أمكن ذلك .

وعندما بلغ س ... في الصباح الباكر ، احتجز أجمـــل غرفة في الفندق المكسوة أرضه بسجادة رمادية اللون . كان على مائدته محبرة أحالها الغبار بدورها

رمادية اللون ، تمثل فارساً يمتطي صهوة جواده ، ويلوّح بقبعته بذراعه المرفوعة عالياً فوق رأسه المكسور ... وأعطاه البواب المعلومات الضرورية ... ان فون ديدوريتز يقطن في شارع ستارو جونتشاروفا ، في بيت يملكه غير بعيد عن الفندق ، يعيش فيه حيـــاة ميسورة ، بلـه في شيء من الثراء أيضاً ، فهو يملك عربة خاصة ، وسائر أهالي البلدة يعرفونه .. وكان البواب يلفظ اسمه هكذا : دريدريتز .

وتوجّه جوروف ، دون عجلة من أمره ، إلى شارع ستارو جونتشاروفا ، وعثر بسهولة تامة على الدار التي يبحث عنها . كان سور رمادي مزروع بالمسامير ينتصب قبالتها تماماً .

قال جوروف في نفسه ، متطلعاً بصورة متناوبة إلى نوافذ الدار وإلى السور :

ــ يكفي أن يرى المرء إلى مثل هذا السور ، كي يولي الادبار هارباً .

وراح يقدّر الأمور في ذهنه ... إن هذا اليوم يوم عطلة ، والزوج في داره من دون أدنى ريب . وعلى أية حال ، فليس من اللباقة في شيء أن أزورها في دارها ، وأبعث القلق في نفسها من دون جدوى .. وإذا أرسلت كتاباً من جهة أخرى ، فقد يقع بين يديّ الزوج ، بحيث يفسد كل شيء . الأفضل إذن أن أترك أمري إلى الصدفة المحضة .

وهكذا استمر يتجوّل على طول الشارع والسور في انتظار تلك الصدفة ، فشاهد شحاداً يدخل من البوابة ، حيث تعرّض لثورة الكلاب التي طردته شرّ طردة، حتى إذا انقضت ساعة كاملة على ذلك تقريباً سمع عزفاً على البيان، ولكن الأصوات كانت تأتيه ضعيفة غير واضحة : لاريب أنها أنّنا سيرجييفنا تعزف ... وفجأة فُتح باب الدار ، وخرجت منه عجوز قصيرة القامة ، يجري في إثرها الجرو الأبيض الذي يعرفه جيداً . وأراد جوروف أن يدعو الكلب ، ولكن

قلبه طفق يخفق بعنف على حين غرة ؛ ولم يستطع لشدة انفعاله أن يتذكر اسم الكلب كي يناديه .

استمر يقيس الطريق ، وحقده على السور الرمادي يتفاقم دون انقطاع . وبدأ يفكر في سخط أن أنّا سيرجييفنا قد نسيته بكل تأكيد ، وأنها ربما تتسلى حالياً في صحبة رجل آخر ، وأن ذلك أمر طبيعي للغاية بالنسبة إلى امرأة في مقتبل العمر ، مضطرة أن ترى منذ الصباح حتى المساء ذلك السور اللعين المنتصب أمام عينيها . وقفل راجعاً إلى الفندق ، وظل جالساً على الأريكة في غرفته زمناً طويلاً ، دون أن يدري ماعسى أن يصنع . وتناول طعام الغداء بعد ذلك، واستراح فترة طويلة من الزمن .

كان المساء قد هبط عندما أيقظ من نومه ، فراح يُعمل فكره ، وهو يتأمل النوافذ المعتمة : «ما أكثر مافي كل هذا من سخف ! الله يعلم لماذا رقدت كل هذا الوقت . ماذا عساني أصنع الآن في عتمة الليل ؟ »

كان يجلس في سريره الذي يذكّر غطاؤه الرمادي الرخيص بأغطية المشافي وهو يسخر من نفسه لشدة نقمته : « هذه هي ، سيدتك صاحبة الكلب الصغير... هذه هي ، مغامرتك ... آه ، حسناً ! ليس عليك سوى الانتظار ... كذا ! »

وتذكر أنه رأى في المحطة ، ذلك الصباح ، إعلاناً مكتوباً بأحرف كبيرة يفيد أن تمثيل مسرحية « الغيشا » سوف يجري للمرة الأولى في هذا المساء بالضبط . تذكر ذلك إذن ، وأخذ سمته إلى المسرح ...

قال في نفسه :

— من الممكن كثيراً أن تأتي لمشاهدة الحفلات الاولى .

كان المسرح غاصاً بالمتفرجين ، وضباب كثيف يخيم فوق الأضواء ، والصالة تضجّ بالصياح كما في سائر مسارح المقاطعات على الاطلاق . وكان المتأنقون المحليون

يقفون في الصفوف الأولى ، تجاه المسرح تماماً ، وقد تصالبت أذرعتهم خلف ظهورهم ، وابنة الحاكم تجلس طبعاً في المقدمة من مقصورة أبيها الخاصة وقد ألقت على كتفيها جلد أفعى مبرقشاً ؛ والحاكم نفسه يتخفى بكل تواضع خلف ستارة المقصورة التي لاتسمح برؤية شيء منه ، اللهم إلا يديه فقط . وكان ستار المسرح يرتعش ، والأوركسترا تبض أوتار آلاتها الموسيقية طويلاً ، وجوروف يفتش بعينيه في لهفة عظيمة عن بغيته بين الناس طوال الوقت الذي استغرقه الجمهور في الدخول واتخاذ أمكنته .

وأخيراً دخلت أنّا سيرجييفنا ، وجلست في الصف الثالث ، فانقبض قلب جوروف عندما رآها ، وأدرك بكل وضوح أن ليس في الوجود كائن أقرب إليه منها ، وأعزّ على قلبه ، وأهمّ بالنسبة إليه .. إن هذه المرأة الصغيرة ، الضائعة في زحمة الجمهور الريفي ، غير المتميزة بأي شيء على الاطلاق ، اتملأ حالياً بنظارها البالي كل حياته ، فهي عناؤه ، وهي فرحته ، وهي السعادة الوحيدة التي يستطيع أن يشتهيها ؛ وكان يفكر فيها ، وأصداء الأوركسترا الرديئة وكمانات الريف المكتئبة تطرق سمعه ، وكان يجدها جميلة ؛ لقد كان يفكر ويحلم في وقت واحد .

إن رجلاً فتياً ، قصير السالفين ، طويل القامة ، منحني الظهر ، قد دخل برفقة أنّا سيرجييفنا وجلس إلى جوارها ، وهو يؤرجح رأسه لدى كل خطوة ، فكأنه يحيي الناس دون انقطاع : إنه الزوج من دون ريب ، ذلك الذي نعتته بالأجير في يالتا ، في عاصفة من المرارة والألم . وفي الحقيقة إن شيئاً من تواضع الأجير كان يلوح في قامته الطويلة ، وفي سالفيه ، وفي صلعته الضئيلة .. وكانت ابتسامة متصنّعة ترتسم على شفتيه ، بينما تلمع في عروة ياقته إشارة تذكر برقم نادل في أحد المطاعم العامة .

وخرج الزوج ، في الاستراحة الأولى ، كي يدخن لفافة ، وترك أنّا

سيرجييفنا وحيدة في مقعدها . عندئذ اقترب منها جوروف ــ وكان هو الآخر يجلس في المقاعد الخلفية ــ وقال بصوت مرتجف النبرات، محاولاً ألا يبتسم :

ــ سلاماً !

فرفعت إليه عينيها وغاض اللون من محياها ، ومن ثم رنت إليه أيضاً في ذعر شديد ، دون أن تصدق باصرتيها ،وهي تشد على منظارها ومروحتها في يديها المنقبضتين وتناضل ، فيما يبدو بكل وضوح ، كي لا يغمى عليها ... وظلا صامتين ، وهي جالسة دائماً ، وهو واقف تجاهها ، مذعوراً لاضطرابها ، دون أن يجد الجرأة كي يقعد إلى جانبها ، بينما أخذت الكمانات التي يبض الموسيقيون أوتارها تصر من جديد بين أصداء المزامير ... واجتاحه هلع شديد على حين بغتة ، إذ خيل إليه أن الناس يتطلعون إليهما من سائر المقاصير . ولكنها نهضت فجأة، واتجهت نحو المخرج بخطى سريعة ، فتأثر خطاها بدوره ... كانا يذهبان ، من دون أي وعي على الاطلاق ، عبر الممرات والسلالم ، يصعدان تارة ، ويهبطان تارة أخرى ، يتلاحق من أمامهما رجال يرتدون بزات رسمية من مختلف الدرجات والرتب ، قد غطت الاشارات والأوسمة صدورهم وملأتها ، وقضاة ، ومعلمون ، وملاكون ، وسيدات يرتدين ثياب السهرة ، يتلألأن أمام انظارهما ويتألقن ، أشبه مايكن بمعاطف من الفرو في صوان متحرك . وكانت ريح تهب عبر المكان ، تحمل إليهما رائحة من التبغ وأعقاب اللفافات ، فيروح جوروف يفكر ، وقلبه يخفق في عنف وشدة غير مألوفين :

ــ أواه ، يا إلهي ! لمَ سائر هؤلاء الناس وهذه الأوركسترا ؟...

وفي تلك اللحظة ، تذكر بغتة كيف حدث نفسه في المحطـــة ، في تلك الأمسية التي ودع أنّا سيرجييفنا فيها ، أن كل شيء بينهما قد انتهى ، وأنهما لن يلتقيا بعد ذلك قط . ولكن ، ما أبعد كل شيء عن الخاتمة الآن !

وتوقفت في سلّم مظلم ضيق قد كتب عليه . « مدخل المدرّج » ، وقالت وهي تتنفس بصعوبة جمة ، شاحبة الوجه بعد ، مضطربة الروح دائماً :

ـــ اشدّ ما أخفتني ! أواه ! اشدّ ما أخفتني . إني أكاد لا أقفُ على قدميّ . لماذا جئت ؟ لماذا ؟

فقال هامساً ، في صوت متسارع النبرات :

ـــ ولكن ، إفهميني يا أنّا ، إفهميني ... أتوسل إليك أن تفهميني ...

نظرت إليه في رعب ، ورجاء ، وحب ؛ نظرت إليه في ثبات ، كي تحفر ملامحه في ذاكرتها بصورة أفضل .

استرسلت ، دون أن تصغي إليه :

ـــ إني أتألم كثيراً ، ولم أفكر إلا فيك طوال هذا الزمن ! لقـــد عشت بذكرياتي عنك ـــ وكنت أريد أن أنسى ، أن أنسى ! ولكن لماذا ، لماذا جئت ؟

كان طالبان يدخنان على قمة السلم ، إلى الأعلى منها ، ويتطلعان إلى الأسفل ... ولكن كل شيء قد أصبح سواء بالنسبة إلى جوروف ، فأجتذب أنّا سيرجييفنـــا إليه ، وغمر بالقبلات وجهها ، ووجنتيها ، ويديها .

قالت في فرَقٍ عظيم ، وهي تحاول إبعاده :

ـــ ماذا تفعل ؟ لقد أمسينا ، كلانا ، مجنونين . إذهب في هذا اليوم بالذات.. إرحل مباشـــرة ... أستحلفك على ذلك بكلّ ماهو مقدّس عندك ... أتوسل إليك ... إن بعض الناس آتون !

كان شخص ما يصعد السلم ...

وتابعت أنّا سيرجييفنا تقول في همسٍ مخفوض :

ـــ يجب أن ترحل ... هل تسمع ، يادميتري ؟ سوف أجيء لرؤيتك في موسكو . إني لم أكن سعيدة قط ، أما الآن فاني تعيسة ، ولن أكون سعيدة

أبداً ، أبداً بعد الآن ، أبداً ! لاتزد عـــذاباتي وتضاعف منها ! أقسم لك أني سأقدم إلى موسكو لرؤيتك . والآن يجب أن نفترق ، ياعزيزتي ، ياحبي ، يجب أن نفترق !

وضغطت على يده ، وشرعت تهبط السلم مسرعة ، وهي تتلفّتُ نحوه طوال الوقت ، فيستطيع أن يقرأ في عينيها أنهـــا لم تكن سعيدة في الحقيقة ... وظلّ جوروف مدة دقيقة واحدة جامداً في مكانه ، يرهف السمع في انتباه ، ومن ثم تناول معطفه ، عندما هدأت الضوضاء واستكانت ، وغادر المسرح ...



٤

وجاءت آنّا سيرجييفنا لرؤيته في موســكو ... كانت تغادر س ... مرة في كل شهرين أو ثلاثة أشهر ، مدّعية أنها تذهب لمراجعة أستاذ اختصاصي بشــأن مرضها النسائي ... وكان زوجها يصدّقها أو لا يصدّقها . إذ تبلــغ موسكو ، كانت تنزل في « البازار السلافي » ، وترسل فوراً الى جوروف رجلاً يغطي رأسه بقبعة حمراء ، فيسرع جوروف للقائها . ولم يكن إنسان في موسكو يعرف ذلك أبداً ...

كان يتجه إليها مرة هكذا ذات صباحٍ شتائي (لقد طرق المرسَل بابه في العشية ولم يجده) ، ترافقه ابنته التي يصحبها حتى المدرسة. وكان ثلج نديٌّ يهطل بندفٍ كبيرة .

كان جوروف يقول لابنته :

— إنّ الحرارة تعلو ثلاث درجات عن الجليد ، والطقس يثلج مع ذلك . ولكن هذه الحرارة لا توجد إلا على سطح الأرض ، أما في الطبقات المرتفعة من الجوّ ، فالحرارة تختلف كل الاختلاف عنها هنا .

وسألته ابنته :

— ولكن ، لماذا لا ترعد السماء في الشتاء ، يا أبت ؟

فأوضح لهـا ذلك أيضاً ... وكان يفكر ، طوال حديثة ، أنه غاد إلى موعد غرامي ، وأن ليس إنسان في هذا العالم يعرف ذلك ، وان إنساناً لن يعرفه قط بكلّ تأكيد . كانت له حياتان : حياة خارجية يستطيع سائر الناس أن يعرفوها ويروها إذا كان ذلك يثير اهتمامهم بصورة كافية ، حياة مفعمة بحقيقة اتفاقية وكذب اتفاقي أيضاً ، تشبه كلّ الشبه حياة أقاربه وأصدقائه ؛ وحياة أخرى تجري بصورة سرية خفية عن العيان ... وإن اتفاقاً في الظروف غريباً — لعله اتفاق طارىء تماماً — قد اضطره الى إخفاء كل ما هو ذو بال بالنسبة اليه ، باعث على العناية في نظره ، ولا غناء له عنه أبداً ، كل ما كان يخلص له ولا يسيىء استعماله قط ، كل ما يشكل جوهر حياته الأساسي ومحتواها ، بينا كل ما هو غلاف كاذب يتر ثر به كي يخفي الحقيقة عن أعين الآخرين ، كمركزه في المصرف مثلاً ، او مناقشاته في النادي ، أو هتافه : « يا للجنس السافل ! » الذي يعني النساء به ، ونزهاته مع زوجته ، وحفلاته ، ودعواته ، كل هذا يجري بصورة ظاهرية ليس غير ... وإذ طفق يحكم على الآخرين متخذاً نفسه مقياساً لهم ، لم يستطع أن يصدق ما يرى ، بل أصبح يجـد أن لـكل إنسان حياة حقيقية تجري تحت غطاء من التخفي والغموض ، كما لو كانت مكتنفة بحماية الليل ، وأن تلك الحياة هي وحدها الباعثة على الاهتمام ... إن كل انسان يحفظ وجوده الشخصي في الخفاء ، ولعل اضطراب البشر المتمدنين وقلقهم هما السبب في ضرورة احترام السرّ الشخصي والاحتفاظ به بعيداً عن فضول الآخرين .

وبعد أن أوصل جوروف ابنته إلى المدرسة ، توجه صوب «البازار السلافي» ، وخلع في الأسفل معطفه ، ومن ثم صعد السلم وطرق الباب ... كان هناك آنـا سيرجييفنا مرتدية ذلك الثوب الرمادي الذي يحبـه أكثر من أي ثوب آخر ، متعبة بفعل السفر والانتظار ، فقد كانت تنتظره منذ العشية ؛ كانت شاحبـة

المحيا ، تنظر إليه دون أن تبتسم . ولم يكد يدخل الغرفة حتى ارتمت على صدره، فتعانقا طويلاً ، طويلاً جداً ، ، وكأنهما لم يريا بعضهما منذ أكثر من سنتين .

سألها :

— حسناً ، كيف تعيشين ؟ هل من جديد ؟

— انتظر ، سوف أقول لك كل شيء في التوّ واللحظة ... إني لا أستطيع ..

لم تكن تستطيع أن تتكلم ، لأنها كانت تبكي ... واستدارت عنه ، وغطت عينيها بمنديلها .

فكّر في نفسه ، وهو يقتعد كرسياً :

— يجب أن أتركها تبكي ، يجب أن أنتظر !

وبعد ذلك دقّ الجرس وطلب شاياً ، وفيما هو يشرب شايه لم تبرح هي واقفة الى النافذة ، تشخص الى الفضاء العريض بثبات ... كانت تبكي بسبب من تعاستها، ولأنها كانت تعي بصورة مؤلمة أن حياتها منظمة على هـــذه الطريقة المحزنة ، ولأنها كانا مجبرين على اللقاء ، وهما يتخفيان عن أعين الناس فكأنهما لصان سارقان: أفليست حياتها حياة محطمة ...

قال :

— هيا ، هيا ، كفى بكاء !

كان من الواضح بالنسبة اليه أن حبهما لن ينتهي في وقت قريب ، بل لم يكن يدري إنْ كان هـذا الحب سينتهي أبداً !.. لقد تعلقت آنّا سيرجييفنا به أكثر فأكثر ، فهي تعبده حقاً ، ومن غير المعقول أن يقول لها إن كل هذا يجب أن يصير الى خاتمة في يوم من الأيام . وعلى أية حال فانها لن تصدّقه إذن !

اقترب منها ، وأخذها من كتفيها كي يداعبها ويحملها على الضحك . وفي تلك اللحظة بالضبط شاهد صورته في المرآة ...

er

لقد بدأ رأسه يشيب ، فدهش لكثرة ما شاخ وازداد قبحاً في هذه السنوات الأخيرة . كانت الكتفان اللتان ترتاح يداه عليهما دافئتين ، تختلجان بما ينتابهما من قشعريرات متلاحقة ، فاجتاحه الرثاء لهذه الحياة الدافئة والكثيرة الجمال بعد ، لكن القريبة منذ الآن ، بكل تأكيد ، من اللحظة التي ستذبل فيها ويغيض لونها كحياته أيضاً . لمَ هي تحبه هكذا ؟ لقد كان يبدو على الدوام في أعين النساء مختلفاً عما هو في واقع الأمر، يبدو لهن ليس على حقيقته، بل الرجل الذي يرينه في خيالهنّ ، والذي بحثن عنه في نهم طوال حياتهنّ .. وكنّ يستمررنَ على أية حال في حبه فيما بعد ،عندما يدركنَ الخطيئة التي وقعنَ فيها ... ولكن امرأة واحدة لم تسعد معه قط ... كان الزمن يمرّ،فيتعرّف الى نساء جديدات ، ويعقد صلات معهنّ أو يفصمها ، لكنه لم يحبّ أبداً ... لقد عرف كل شيء ، ما عدا الحب .!..

ولكنه الآن فقط ، عندما أخذ الشيب يكتسح رأسه ، قد طفق يحبّ أخيراً، للمرة الأولى في حياته ...

كان وآنّا سيرجييفنا يتحابان مثل كائنين قريبين ،مثل زوج وزوجة ، مثل صديقين حنونين للغاية . كان يصوّر لهما أن القضاء قد اختارهما الواحد من أجل الآخر ، فلم يكونا يفهمان كيف يمكن ان يكون هو متزوجاً ، وكيف يمكن أن تكون هي متزوجة أيضاً ! كانا شبيهين بعصفورين عابرين ، ذكر وأنثى قد صيدا ، وأجبرا على العيش في قفصين مختلفين . لقد غفر كل منهما للآخر كل الماضي الذي يخجلهما ، وهما يصفحان عن كل شيء في الحاضر ، ويشعران أن حبهما قد بدلهما كثيراً .

في الماضي ، عندما كان الحزن ينتابه ، كان يهدىء من روع نفسه بمختلف الحجج التي تراود ذهنه دون أي ترتيب . أما الآن فلم تكن القضية قضية أفكار

مطلقاً ... كان يحسُّ إشفاقاً عميقاً ، ويحسُّ الحاجة إلى أن يكون صادقاً حنوناً ...

كان يقول :

ــ هدّئي من روعك ياحبيبتي ، ياحنونتي ؛ فقد بكيتِ كثيراً ، وهــــذا يكفي ... أما الآن فيجب أن نتحدث ، يجب أن نجد طريقة ما .

وظلا طويلاً يتباحثان،ويناقشان الوسيلة التي تمكنهما من اجتناب هذا الالزام في التخفي ، وفي الخداع ، وهذا العذاب الناجم عن عيشهما في مدينتين مختلفتين ، وعن عدم اللقاء الا في فترات متباعدة ، ولبرهة وجيزة من الزمن فقط... كيف السبيل الى الخلاص من سائر هذه القيود التي لا تطاق ؟

كان يسأل نفسه ، آخذاً رأسه بين يديه :

ــ كيف العمل ، كيف ؟ ما العمل ؟

كان يُخيل اليهما أنه يكفي القليل جداً كي يكتشفا الحل الأفضل ، وأن حياة جديدة ، حياة رائعة ، سوف تبـدأ عندئذ ... وكان كلاهما يدركان بكل وضوح أنهما ما برحا بعيدين ، بعيدين جداً ، عن الخاتمة ، وأن أصعب المراحل وأوعرها لم تبدأ سوى الآن فقط ، وأنها سوف تستمر طويلاً ، طويلاً جداً !..